بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ٤ (ربيع وصيف ١٤٣٢ هـ. ق/ ١٣٩٠هـ. ش)، ص ١٧ـ٢٨

سلطان العاشقين (ابن الفارض) و خصائصه الشعرية [١]

محمدعلي أبوالحسني❖
سردار أصلاني❖❖

الملخص

أبوحفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض من الشعراء الذين عاشوا في القرن السادس، ونالوا شهرة واسعة في ميدان الشعر، وقد مدحه كثير من النقّاد الكبار أمثال ابن خلكان صاحب كتاب *وفيات الأعيان*، حيث فضّله على شعراء عصره. ونحن في هذه الدراسة نبحث حول بعض خصائص شعره.

إن الموضوع الأساسي الذي يدور حوله شعر ابن الفارض هو الغزل، وهنالك موضوعات أخرى أهمها الحديث عن الخمرة التي ليست كالخمريات المعروفة عند أبي نواس وغيره، بل إنه يرمز فيها رمزاً صوفياً لا يفسَّر إلا تفسيراً باطنياً. وأيضاً يمتاز شعره بكثرة الجناس والبديع.

المفردات الرئيسية: ابن الفارض، الشعر، الحب، الجناس، الطباق، الغزل.

المقدمة

كان يعيش ابن الفارض في عصر الأيوبيين، و هو عصر عُرف بإحياء الفكر و الثقافة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى الاهتمام بالسياسة، و إحياء العلوم الشرعية، والعناية بالقرآن الكريم، و الحديث النبوي. و لتحقيق هذه الغاية النبيلة راح الحكام يشجّعون العلماء، ويتسابقون إلى تقريب الفقهاء والحفّاظ و القرّاء.

ذلك العصر عصر تنازع عاملين مختلفين في النفوس: التصوف و التقوى، وفي المقابل الفسوق و المجون، و ذلك لانحلال الأخلاق و تحكّم الشهوات آنذاك.

واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين: فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان. وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية، وربّي تربية صوفية، فلم يكن له بدٌّ من سلوك طريقة القوم في شعره؛ فينظم في شعره إشاراتهم، ويصف مقاماتهم،

١ـ تاريخ التسلم: ١٣٨٨/١١/١٧هـ. ش (٢٠١٠/٢/٦م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٩/٤/١٦هـ. ش (٢٠١٠/٧/٧م).

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «**پیام نور**»ـ شهرضا.

❖❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان.

Archive of SID

www.SID.ir

ويُكثر من نعت الخمر وذكر الغزل مريداً بذلك الذات الإلهية وحبّها وما شابهها من المفاهيم. فكان بذلك موجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي، وهو أكثر الشعراء تعمّلاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق (الزيات، د. ت، ص ٤٠١).

ومن أشهر شعره تائياته الكبرى والصغرى. أما التائية الكبرى، فهي قصيدة تقع في ٧٦٠ بيتاً، ضمنها الشاعر تجاربه الصوفية ووصفاً لطريق الكمال الصوفي، وقد دعيت لذلك «نظم السلوك» (الفاخوري، آ ١٩٩١م، ص ٥١٣).

خصائص شعر ابن الفارض

انتهج ابن الفارض في شعره من حيث الشكل الطابعَ القديم، ولكن لم يفرط في عمود الشعر التقليدي، ولم يتجه للبديع اتجاهاً مسرفاً، كما كانت الحال في عصره.

أما من حيث المضمون، فقد غلب على شعره طابع التصوف، وإن ألبس معانيَه أثواباً من المعاني التقليدية في الغزل والنسيب والخمريات وما شابهها.

وقد تحدث عنه ابن خلكان قائلاً : «**له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق وظريف، ينحو منحى طريقة الفقراء**» (ابن خلكان، ١٩٥٢م، ص ١٣٦). و جاء في *المجاني الحديثة* : «**وشعره لطيف كان ينحو فيه منحى الصوفية**» (البستاني، د. ت، ص ٣١٥).

انشغل ابن الفارض بالشعر نحو أربعين سنة، وذلك أمد طويل، ولكن شعره بقيمة معانيه وليس بقيمة ألفاظه (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ٧).

اهتمّ علماء التصوف بشعر عمر بن الفارض من وجهة نظرهم وتعاليمهم، وما تردد في هذا الشعر من المعاني الصوفية كالوجد ووحدة الوجود، والعشق الإلهي وما إلى ذلك.

وقد عبّر ابن الفارض عن الحب والوجد الإلهي بصور شتّى مستفيداً من تعبيرات استعار بعضها من شعراء الحب العذري.

لقد ملك الحب كل قلبه، وغيبّه عن كل شيء إلا عن محبوبه الذي قد لاقى في سبيل الاتصال به والاتحاد معه ما يحتمل وما لا يحتمل من أهوال وتباريح.

وقد لُقّب بـ«سلطان العاشقين» لقوله :

يُحشَر العاشقون تحت لوائي وجميعُ الملاح تحت لواكا

«العاشقون» كناية عن أهل المحبة الإلهية، و«اللواء» كناية عن الروح، و«الملاح» كناية عن التجليات الربّانيّة (السابق، ص ١٥٦).

يعتبر الشاعر نفسه من روّاد السلوك العرفاني، و لذلك يطلب من أهل المحبّة و من سُلّاك طريقة التصوّف أن يجمعوا في حوزته، و يتبعوا طريقته العرفانية التي سلك فيها. و الشطر الثاني من البيت يشير إلى عظمة الخالق، و يقول الشاعر: وإن يُجمَع العشاق تحت لوائي في سلوك الطريق العرفاني، أمّا الخالق و الربّ، فهو الذي اجتمعت فيه كلّ الصفات الجمالية و الجلالية ؛ و لهذا ينصح الشاعر سلّاك طريقة المعرفة أن يتركوه، و بدلاً منه، يتمسكوا بالخالق، وينتبهوا إلى حسنه و جماله و جلاله، حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى معرفة الله.

وحبّ الشاعر حبّ يتخطّى دائرة الحس، فهو حبّ صافٍ من قيود المادة. إنه قد خلّص نفسه من كل شوائبها، وأقبل على حبيبه الذي يحلّيه الجمال المطلق، وفي أسمى صورة معنوية.

ومن أخصّ خصائص هذا الحبيب أن كل ما في الكون من آيات الحق والخير والجمال مجتمع فيه.

Archive of SID

www.SID.ir

ولعل الأبيات التي قالها في وصف حبيبه، وما صاغها في تعبيرات حسّيّة، واختارها من أوصاف الخمرة وكؤوسها ومجالسها هي خير ما يعبّر عن ذلك. يقول في خمريته:

شـربنا علـى ذكـر الـحبيب مُدامـةً سَكِرنا بهـا مِـن قبـل أن يُخلَـق الكَـرْمُ
لهـا البـدرُ كـأسٌ وهْـي شمـسٌ يُـديرها هِـلالٌ وكـم يبـدو إذا مُزِجَـتْ نَجـمُ
ولـولا شـذاها مـا اهتـديتُ لحانهـا ولـولا سـناها مـا تـصوّرها الوَهْـمُ
ولم يُبْـقِ منهـا الـدّهرُ غـيرَ حُـشاشة كـأنَّ خفاهـا في صُـدور النُّهـى كَتْـمُ
.....
وَقامَـتْ بهَـا الْأشْـياءُ ثَـمَّ لحكمـة بهـا احتجبـتْ عـن كـلّ مـنْ لا لـه فَهْـمُ

(الزيات، د. ت، ص ٣٥٥؛ البستاني، د. ت، ص ٣١٧ـ ٣١٨)

ففي هذه الوجدانيات يتردد كثير من معاني الصوفية السابقين؛ ففيه عشق رابعة العدوية، ومعاني الحلاج و غيره ممن اعتقدوا بالحلول، ومن نادى بوحدة الوجود، ومن قال بالإشراق، وقد شبّه الشاعر الحقيقة الأزلية بالأنوار التي تتكشّف له بعد رياضة روحية، فتُخلّص الروح من ظلم المادة والحس.

كذلك نرى في بعض معانيه الوجدانية صوراً قريبة من صور «الخيّام» الذي كان يعيش في القرن الخامس الهجري في نيسابور، وإن اختلفت في منحاها ومعانيها. ولا شك أن ابن الفارض قد وقف على كثير من كتب من سبقوه من الصوفية الكبار، أو آراء من عاصروه كابن عربي والسهروردي، فتسرّبت بعض أفكارهم إلى شعره.

استخدام الصناعات الأدبية و بعض الظواهر النحوية في شعر ابن فارض

أكثر ابن الفارض من استعمال التصغير في شعره، ولا تكاد تخلو قصيدة منه (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص١٠). وألفاظه في التصغير كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال: أُهَيل (تصغير أهل)، وفُتَيّ (تصغير فتى):

يـا أُهَيـلَ الـوُدِّ أنّـى تُنكـرو نـيَ كَهْـلاً بعْـد عرفـاني فُتَـيّ؟!

(السابق، ص ٢٠٢)

وأُمَيلِح (تصغير أملح)، وأُحَيلى (تصغير أحلى):

يـا مـا أُمَـيلِح كُـلّ مـا يرضـى بـه! ورُضـابُه يـا مـا أُحَـيلاهُ بفـي!

(السابق، ص ١٤٦)

و العُذَيب تصغير «العذب»:

سَرَت فَأسرَّت للفؤاد غُدَيّةً أحاديث جيرانِ العُذيبِ فَسَرَّتِ

وأيضاً يمتاز شعر ابن الفارض بكثرة الجناس والبديع مع الإجادة فيهما مما كان مستملحاً في عصره (زيدان، ١٩٩٦م، ص ١٥)؛ كقوله:

نعـم، بالـصِّبا قلـبي صَـبا لِـأحبّتي فيـا حبّـذا ذاك الـشَّذا حـين هَبَّـتِ

Archive of SID

www.SID.ir

سَـرَت فأسَـرَّت للفـؤاد غُدَيّـةً أحاديث جيرانِ العُذَيب فَسَرَّت

(النابلسي، آ د. ت، ص ١٣٨)

ففي البيت الأول الجناس المستوفي (التامّ)[١] بين صَبا والصِّبا، وما ألطف التشطير في هذا البيت ؛ فإن الشطر الأول قد صار سجعه «نعم بالصِّبا قلبي صَبا»، والشطر الثاني «فيا حبّذا ذاك الشّذا». وفي البيت الثاني جناس تام بين «سَرَت» و«سَرّت»، وجناس ناقص بين كل منهما وبين «أسرّت».

عندما نقرأ ديوان ابن الفارض، نرى أنه قد استخدم كثيراً من المحسّنات البديعية ؛ كقوله :

أيـا زاجـراً حُمْـرَ الأوارِكِ تـاركَ الْـ مَـوارِكِ مِـن أكْوارهـا كالأريكـةِ

لك الخيرُ إن أوضحتَ توضِحَ مُضْحِياً وجُبْـتَ فَيـافي خَبـتِ آرامِ وَجْـرَةِ

ونكّبـتَ عـن كُثْـبِ العُـرَيضِ مُعارِضـاً حُزونـاً لِحُـزْوى سـائقاً لِـسُوَيقَةِ

(ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ٨٤)

فالزاجر السائق كناية[٢] عن القائم على كل نفس بما كسبت، وهو الحق تعالى ؛ و«الأوراك» كناية عن الأنفس البشرية التي تتزين لها شهوات الدنيا، فلازمها ؛ و«زجرها» كناية عن تكليفها بالأوامر والنواهي ؛ وقوله : «تارك المواركِ» كناية عن كمال استيلاء الحقيقة الإلهية على النفوس البشرية.

وفي البيت الثاني تجنيس شبه الاشتقاق بين «أوضحت» و«توضح» و«مضحياً»، وجناس تصحيف بين «جُبت» و«خَبت». وقوله «توضح» كناية عن حضرة العلم القديم. وقوله «مضحياً» كناية عن كمال طلوع شمس الأحدية على جدران الأعيان الكونية. وقوله «جبت» كناية عن تكرار الظهور بالتجلي.

وفي البيت الثالث جناس بين «العريض» و«معارضاً»، وبين «حُزون» و«حُزوى» وبين «سائق» و«سُوَيقة».

وقد كثر هذا اللون من الصنعة في هذه القصيدة وغيرها من شعره. وقد مال إليه شعراء القرن السادس كثيراً وخاصة أهل الشام، فأسرفوا فيه إسرافاً.

و استخدم ابن الفارض ألوان جناس، فجاء به تامّاً و مشابهاً و مخالفاً و مذيّلاً و مركباً و مصحفاً، كما جاء بأنواع أخرى من الصناعات اللفظية والمعنوية كالطباق ؛ كقوله :

خَـيرُ الأُصَـيحابِ الّـذي هـو آمـري يـالغَيِّ فيـه وعـن رَشـادي زاجـري

(النابلسي، ب د.ت، ص ١١)

ففي البيتين مقابلة بين الآمر و الزاجر، و طباق[٣] بين الرشاد و الغيّ.

و أيضا المقابله في قوله :

منّي له ذلُّ الخضوع و منه لي عزُّ المنوع و قوّة المستضعف

(ناصرالدين، ١٩٩٠ م، ص ١٤٦)

فقد قابل بين «مني» و«له»، و بين «له» و«لي»، و بين «ذل الخضوع» و «عزّ المنوع» و «قوة المستضعف».

و الترصيع[٤] في قوله :

Archive of SID

www.SID.ir

أربَت لَطافَتُه على نَشر الصَّبا وَ أبَت تَرَفُّتُه التَّقمُّصَ لاذا

(النابلسي، آ د.ت ، ص ١١٧)

و رد العجز على الصدر[٥] كقوله:

يا ساكني البطحاء هل من عودة أحيا بها يا ساكني البطحاء

(النابلسي ، آ د.ت، ص ٢٢ ؛ الفاخوري، ب ١٣٦٣هـ. ش ، ص ٥٢٠)

«ساكنوا البطحاء» كناية عن الأولياء والعارفين (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ٢١).

و قد استخدم ابن الفارض في البيت التالي جناس التركيب (المفروق)[٦] :

جَنَّةٌ عندي رُباها أمحلَت أم حَلَت عُجلَتُها مِن جَنَّتي؟

(النابلسي، ب د.ت، ص ٢٢)

في هذا البيت جناس التركيب بين «أمحلت» و «أم حَلَت».

و«أمحلت» بمعنى «أجدبت»، و «حلت» بمعنى أثمرت. الحبيبة هي جنةٌ عند الشاعر، و «الرُّبا» كناية عن المقامات الإلهية و الأحوال الربانية التي يكون فيها السالك في طريق الله ﷻ. و هذه هي جنّة المعارف و العلوم.

و قوله «أمحلت أم حلت» بمعنى: أجدبت أم أثمرت بما يحلو من لذائذ المناجاة، ولطائف الخطابات و المكالمات الحاصلة في الدنيا و الآخرة.

صورة القصيدة عند ابن الفارض

بناء القصيدة عند ابن الفارض يشبه البناء التقليدي للشعر العربي، ولكنه يكتفي منه في المطلع إلى الجزء الخاص بالنسيب، ومع ذلك فهو لا يتبعه تماماً، فلا يقفو أثر التقليديين باستيقاف الصاحب أو الصاحبين، والوقوف على الأطلال، أو التصريح عليها، ثم التذكر والتشوّق، والدعاء بالسُّقيا للديار، وما إلى ذلك، بل هو يعرج على هذه المعاني دون ترتيب، ولا يكاد يذكر استيقاف الصاحب إلا قليلاً، وهو يطلب الحادي إلى بلاد الحبيب أن يقف:

سائقَ الأظعانِ يطوي البيد طَيْ مُنعماً عرِّج على كُثبان طَيْ

وبذات الشّيحِ عنّي إنْ مَررْ تَ بحيٍّ من عُرَيبِ الجزعِ حَيْ

«السائق» في البيت الأول هو الرحمن ﷻ ؛ و«الأظعان» هم البشر ؛ و«كُثبان» كناية عن المقامات المحمدية (السابق، ١٩٩٠م، ص ١٩٩).

وأيضا يقول وقد رأى نار لَيلاه وهو مع الرّكب، أو ليس معهم:

أ وَميضُ برقٍ بالأُبَيرِق لاحا أم في رُبى نجدٍ أرى مصباحا؟

أم تلك لَيلى العامريّةُ أسفرتْ ليلاً فصيَّرتِ المساءَ صباحا؟

يا راكبَ الوَجناءِ ـ وُقّيتَ الرَّدى ـ إن جُبْت حَزْناً أو طَوَيتَ بطاحا

وسلكتَ نَعمانَ الأراك فعُجْ إلى وادٍ هناك عهِدتُه فَيّاحا

(البستاني، د.ت، ص ٣١٩)

يستعمل اسم ليلى لمطلق الحبيب، والمراد هنا الحق . يقول في البيتين الأول والثاني:

Archive of SID

www.SID.ir

أ صورة لمحتُها في انجذابي برقٌ لاح لي في عالم الكون، أم نورٌ سماويّ رأته عيني في سماء الأبرار؟ أم بالحري تلك صورته ﷺ انكشف لي ضوءها في صلاة الليل، فجعلَتِ الليلَ نهاراً؟

و المراد بـ«راكب الوجناء» في البيت الثالث السالك في طريق الخلاص القاهر نفسَه. وفي البيت الرابع المراد بـ«نعمان الأراك» التجليات الإلهية (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ١٠٥).

وكثيراً ما يبدأ قصائده بدءاً لا يتقيّد فيه بذكر الركب أو الظعائن وما شابهها، بل قد يعمد إلى تذكّر حبيبه بالنسيم أو ريح الصّبا.

وقد جارى ابن الفارض مَن سبقه من كبار شعراء العربية في نهج القصيدة في وزنها ورويّها أحياناً. وله القصيدة الداليّة جارى فيها المتنبيَ، واستخدم كل قوافيها. قال المتنبي:

أ مُساورٌ أم قَرنُ شمسٍ هذا ... أم ليثُ غابٍ يَقدُم الأستاذا؟

وقال ابن الفارض:

صَدٌّ حَمى ظَمَئي لِماك لماذا؟ ... وهواك قلبي صار منه جُذاذا

(ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ١١٦).

ويختلف موضوعا القصيدتين؛ فالمتنبي يمدح، وابن الفارض مستغرق في مواجيده. والمواجيد بمعنى التواجد والوجد، وهي أحوال غيبية تخطر على قلب العارف (أنصاري، ١٣٧١هـ. ش، ص ٥٧).

ومن عرضنا لشعر ابن الفارض يتضح مكانته الشعرية بين أقرانه. فهو شاعر ذو طابع خاص في موهبته الشعرية. التزم لوناً معيناً وهو الوجد الروحي، والتصوف على طريقة «وحدة الشهود». ينظم تجاربه الصوفية في شعر رقيق غامر بالعاطفة، فتُحسّ بالتكامل بين ثباته الشعري ومعانيه تكاملاً يرقى به في ميَدان التصوف إلى شعراء الصوفية الفُرس الكبار أمثال: جلال الدين الرومي؛ وفي ميدان الشعر الوجداني إلى مراتب العاشقين أمثال: مجنون ليلي، وجميل بُثينة، والعباس بن الأحنف، والشريف الرضي؛ وفي نصوع البيان وتحكّمه في الصنعة درجة البحتريّ والمتنبي.

وقد يصطنع مطالع شعراء الخمرة كأبي نواس وغيره، فيبدأ بذكر الخمر كما بدأوا مستعيضين بها عن ذكر الرحلة والراحلة؛ كقوله في قصيدته «نظم السلوك»:

سقتني حُمَيّا الحُبِّ راحَةُ مُقلتي ... وكأسي مُحيّا مَن عن الحسن جلّتِ

فأوهمتُ صَحبي أن شُرب شرابهم ... به سُرّ سِرّي في انتشائي بنظرةِ

(فرغاني، ١٣٩٨ هـ، ص ٨٠ ـ ٨١)

هذه القصيدة تدعى «التائيّة الكبرى» لانتهاء رويِّها بحرف التاء، وهي قصيده تقع في ٧٦٠ بيتاً من الشعر؛ ضمّنها الشاعر تجاربه الصوفية، ووصفاً لطريق الكمال الصوفي؛ وقد دعيت لذلك «نظم السلوك» (الفاخوري، آ١٩٩١م، ص ٥١٣).

أو قوله:

شَربنا عَلى ذكر الحبيبِ مُدامَةً ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرمُ

لَهَا البدرُ كأسٌ وَهْي شمسٌ يُديرها ... هِلالٌ وكَم يبدو إذا مُزجَت نجمُ!

(الزيات، د.ت، ص ٣٥٥)

Archive of SID

www.SID.ir

فقد بدأ الحديث عن الحب.

ويكثر في شعره الاقتباس من القرآن كريم، والأحاديث والأخبار والمأثور من أقوال العرب والشعر القديم. فمثلاً لو دقّقنا النظر في هذا البيت:

يا سائِقَ الظّعنِ يَطوِي البيدَ مُعتَسِفاً طَيَّ السِّجلِّ بذاتِ الشّيح من إِضَم

لوجدنا أنه مأخوذ من الآية الشريفة: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء ٢١: ١٠٤).

وهنا نذكر نماذج أخرى:

تُذكِّرني العَهْدَ القديم لأنّها حديثَةُ عهدٍ من أُهَيلِ مودّتي

(ابن‌الفارض، ١٤١٠هـ، ص ٨٣)

«العهد القديم» في البيت إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (الأعراف ٧: ١٧٢).

وقبلَ ارتداد الطّرفِ أُحضِرَ من سَبا لـه عَرشُ بَلقيس بغير مشقّة

(السابق، ١٤١٠هـ، ص ٧١)

والبيت إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...**﴾ (النمل ٢٧: ٤٠).

لها البدرُ كأسٌ، وهْي شمسٌ يُديرُها هِلالٌ وكم يبدو إذا مُزجَت نجم!

(السابق، ص ١٧٩)

والـ«نجم» إشارةٌ إلى الكلام التالي من النبي ﷺ: «**أصحابي كالنّجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» (السابق).

المعاني العرفانية و المصطلحات الصوفية في اشعار ابن الفارض

وللصوفية مصطلحات يُكثرون من ترديدها في أشعارهم، وقد أفرد لها ابن السّرّاج الطوسيّ في *اللمع* باباً خاصاً ذكر فيه نحو ١٥٩ نوعاً، ثم شرحها شرحاً وافياً. وأهم هذه المصطلحات:

١ـ **الجمع والتفرقة**: فالجمع هو اتحاد الواجد بالله على سبيل الوجد، والتفرقة تعلّقه بالبشرية[٧]. فالأول عن طريق القلب، و الثاني عن طريق العقل. فمثال الجمع قول ابن الفارض:

لها صَلَواتي[٨] بالمقام أُقيمُها وأشهد فيها أنها ليَ صَلّتِ

كلانا مُصل واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سجدةِ

(ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ٣٧)

٢ـ **والفناء والبقاء**[٩]؛ قيل: الفناء السير إلى الله، والبقاء بداية السير في الله (يثربي، ١٣٦٨هـ. ش، ص ٢٩٦؛ كاشاني، ب ١٣٨٢هـ. ش، ص ٤١٦).

كقوله:

Archive of SID

www.SID.ir

وتلافي إن كان فيه ائتلافي بك عَجِّل به جُعِلتُ فداكا!

(كاشاني، ب ١٣٨٢هـ. ش، ص ٢٩٧).

و«الائتلاف» كناية عن الاستئناس بالتجليات و شهود مظاهر المحبوب الحقيقي (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ١٥٢).

و قوله :

إن كان في تَلَفي رضاك صَبابةً ولك البقاءُ، وَجدتُ فيه لَذاذا

«التلف» هنا الفناء في سبيل الله، و الصبابة كناية عن القبول بهذا الفناء (السابق، ص ١١٦).

وتتعدد في شعره ألفاظ الحبّ، وتختلف أسماؤه حتى زادت على الخمسين، ونذكر من الألفاظ التي دلّت على الحب: المحبة، والعلاقة، والهوى، والصّبوة والصّبابة، والشغف، والوجد، والكلف، والتّتيُّم، والعشق، والجوى، والوله، والدّنَف، والشَّجو، والشوق، والتّباريح، والوهن، والشّجَن، والاكتئاب، والوصَب، والحزن، والكَمَد، واللوعة، والفُتون، والجنون، والخَبَل، والداء المخامِر، والغرام، والهُيام؛ وغيرها (السابق، ص ١١؛ ابن القيّم الجوزية، د. ت، ص ٢٥).

الحبّ والهوى وما يتعلق به من كتمان وألم وتحول وشوق وهجر ووصل وعذل و.... من الوجهة الصوفية من المفاهيم الشائعة في شعر ابن الفارض.

٣ـ الوجد: أن ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية، فيشاهد ويسمع ما لم يكن يتهيّأ له من قبل[١٠].

كقوله :

يا أخا العَذل في مَنِ الْحُسْنُ مِثلي هامَ وَجْداً به عُدِمتُ إخاكا!

لو رأيتَ الذي سباني فيه مِن جمال ـ ولن تراه ـ سَباكا

(ابن الفارض، ١٩٩٠م، ص ١٥٩)

و«أخ العذل»: اللائم؛ «هامَ»: هنا بمعنى أنه سار على غير هدى؛ و«عُدمتُ إخاكا» أي: أعدمني الله مؤاخاتَك لعذلي وملامتي حتى تصير مثلي ومثلَ حُسنه هائماً في محبته؛ «سَباني»: أسَرَني بسحره.

و يقول في مكان آخر :

وجدتُ بوَجْدٍ آخذي عند ذكرها بتحبير تالٍ أو بألحان صَيِّتِ

(المصدر نفسه، ص ٥٨).

٤ـ القبض والبسط[١١] : « **القبض خلاف البسط... وأصله في جَناح الطائر... قَبض الطّائرُ جناحَه، أي: جمعه... والبسط: السرور والفرح**» (ابن‌منظور، ١٤٠٥هـ، «قبض»).

كقول الشاعر :

وفي رَحَموت البسط كُلّيَ رغبةٌ بها انبسطتْ آمالُ أهل بسيطتي

وفي رَهَبوت القبض كُلّيَ رهبةٌ ففيما أجَلّتُ العينَ منّي أجَلّتِ

(السابق، ص ٧٤).

الرحموت: الرحمة؛ البسيطة: الأرض؛ الرهبوت: الرهبة؛ أجّلتُ العين: أدَرتُها؛ أجلّت: أوضحت.

Archive of SID

www.SID.ir

يقول الشاعرُ في هذين البيتين حول مفهوم البسط و القبض العرفانيَّين بأن كلَّ من يعيش في الأرض له رغبة تامّة و كاملة بمفهوم البسط العرفاني و مزاياه، و كلّ من يعيش في الأرض له خوفٌ و مهابة كلّيّةً من مفهوم القبض.

و يقول الشاعر في هذا المجال: إنّي أدرتُ عيني في ما حولي، فرأيتُ وتيقّنتُ بأن كل الأشياء والأشخاص الذين يتواجدون حولي لهم رهبةٌ كلّيّةٌ و خوفٌ تامٌّ من القبضِ.

و خلاصة القول أنّ كل الناس لهم رغبة تامة إلى البسط، بينما لهم رهبة تامّة و خوفٌ شديدٌ من القبض.

٥ـ السُّكر والصّحو: فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة الخلق، ومشاهدته للحق بلا تغيّر ظاهر على العبد:

تُهـذّبُ أخـلاق النّـدامى فيهتـدي بها لطريق العزم مَن لا له عـزم

(ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ١٨٤؛ البستاني، د.ت، ص ٣١٨).

«الندامي»: جمع النديم و هو رفيق الشراب. «العزم»: الفتوّة و القوة. «لا لـه»: «لا» حرف نفي بمعـني «ليس» و المعنـى: ليس له.

أشار بـ«الندامى» إلى المريدين السالكين طريق الله ، و «العزم» كناية عن السير في طريق الخير (ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ١٨٢).

وفي سَكرة منهـا، ولـو عُمـر سـاعة ترى الدّهرَ عبداً طائعاً ولـك الحكم

الخطاب للمريد السالك، والعبد الطائع هو العارف لأمر ربه، المؤتمر بأوامره، والمنتهي بنواهيه؛ و«الحكـم» كناية عـن تحكّم المريد بأمر نفسه، وكبح جماحها عن الرغبات الفانية (السابق، ص ١٨٤).

و**الصحو** رجوع القلب إلى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين، و يختلف عن الحضور بأن هذا دائم و الصحو حادث:

ففي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرَها وذاتـي بـذاتي إذ تحلّـت تجلـتِ

(ابن الفارض، ١٩٩٠م، ص ٤٢)

وكُـلُّ الـذي شـاهدتَه فعـلُ واحـد بمفـــرده، لكـــن بحُجـب الأكِنَّـــةِ

إذا مـا أزال الـسِّتـرَ لـم تـر غـيرَه ولم يَبـقَ بالأشـكال إشـكالُ ريبـةِ

(ناصرالدين، ١٩٩٠م، ص ٧٩)

٦ـ الكشف: بيان ما يخفى على الفهم، فيُكشف عنه للعارف كأنه رآه رؤية العين:

وما برحوا معنىً أراهـم معي فإنْ نأوا صورةً في الذهن، قام لهم شكل

يقول في هذا البيت: إن صورتهم لا تفارق الذهنَ أينما بَعُدوا. فإن بَعُدت أجسادهم، فإن ذكرهم دائماً في البال.

(السابق، ١٩٩٠م، ص ١٦٩)

وقال ابن الفارض أيضاً:

فالدّيـــاجي لنـــا بـــك الآن غُـــرٌّ حيث أهديتَ لي هُدىً مِن سَناكا

واقتبـاس الأنـوار مـن ظـاهري غيـ ـــرُ عجيـــب وبـــاطني مأواكـــا

«الدياجي» في البيت الأول كناية عن المظاهر الكونية باعتبار نظر أهل الغفلة والاحتجاب إليها، و«لنا» كناية عن معشر العـارفين والأولياء الصالحين، و«الغرّ» كناية عن إشراق النفوس بنوره.

Archive of SID

www.SID.ir

وفي البيت الثاني يقول: إن ظهرَ الضّياء على ملامحي، فلا عجب في ذلك؛ لأن مأواك في قلبي، ولا بدّ أن يفيض باطني على ظاهري من نورك (السابق، ص ١٥٧ـ١٥٨).

٧ـ **التجريد**: وهو ما تجرّد للقلب من شواهد الألوهية، إذا صفا من كدور البشرية:

أبعينَيه عمّى عنكم كما صَمَمٌ عن عذله في أذني؟

أوَلم يَنهَ النُّهى عن عذله زاوياً وجهَ قبول النّصح زي؟

(السابق، ١٩٩٠م، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤)

النتيجة

ابن الفارض الملقب بـ«سلطان العاشقين» من الشعراء الذين عاشوا في القرن السادس. له ديوان شعر وقد امتاز شعره ببعض الأمور التي نذكرها بصورة موجزة فيما يلي:

١ـ ابن الفارض شاعر عاشق توزّعت عواطفه بين عالمي الماده و الروح؛

٢ـ شعره مزيج من الفطرة و التكلف. فهو شاعر بالأصل، ولكنه حاول أن يجاري شعراء العصر في نماذج شعرهم؛ فوقع في بعض التكلف أحياناً، و الصناعة أحياناً أخرى، وخصوصاً في استعماله لفنون البديع من جناس وطباق وتورية. و يكفي من تكلفه قصيدته الذاليّة؛ فالمعروف أن الشعراء يبتعدون عن هذه القافية لصعوبتها و ندرة ألفاظها؛

٣ـ أكثر ابن الفارض من استعمال التصغير في شعره، ولا تكاد تخلو قصيدة واحدة من هذا الباب؛

٤ـ تكثر في شعر ابن الفارض أسماء الخمرة وأوصافها، وما ذلك إلا تعبير عن حالات الغيبوبة والفناء في الله؛

٥ـ تتعدد في شعره ألفاظ الحبّ، و تختلف أسماؤه حتى زادت على خمسين اسماً.

تعليقات:

١ـ الجناس بين اللفظين هو تشابههما في اللفظ، و «التام» منه أن يتّفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيآتها وترتيبها. فإن كانا من نوع كاسمين، سمّي مماثلاً؛ وإن كانا من نوعين، سمي مستوفياً. (التفتازاني، ١٣٧٣هـ. ش، ص ١٩١ـ١٩٢؛ هاشمي بك، ١٩٤٠م، ص ٤١٤).

٢ـ و الكناية اصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي (الجارم وأمين، ١٩٦٩م، ص١٢٥)؛ أو هو كلام أريد به معنى غير معناه الحقيقي الذي وُضع له، مع جواز إرادة ذلك المعنى الأصلي؛ إذ لاقرينة تمنع هذه الإرادة. (الحسيني، ١٤١٣هـ، ص٦٩٠).

٣ـ إن كان الضّدّان أو الأضداد لموصوفين و الألفاظ حقيقية، فهو الطباق شريطة أن كان الكلام جامعاً بين ضدّين فذّين؛ وإن كانت الأضداد أربعة فصاعداً، كان ذلك مقابلة. (ابن أبي الإصبع، ١٩٥٧ م، ص ٣١).

٤ـ الترصيع هو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها (الهاشمي بك، ١٩٤٠م، ص٤٢٣).

٥ـ ردُّ العجز على الصدر، و هو في النثر أن يُجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة والآخَر في آخرها. وفي النظم أن يكون أحدهما في آخِر البيت، والآخَر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر المصراع الثاني (التفتازاني، ١٣٧٣هـ. ش، ص ١٩٩ـ٢٠٠).

Archive of SID

www.SID.ir

٦ـ سمّي هذا النوع من الجناس مفروقاً لافتراق اللفظين في الكتابة (التفتازاني، ١٣٧٣هـ. ش، ص ١٩٢).

٧ـ قال أبو نصر السّرّاج:

الجمع لفظ مجمل يعبّر عن إشارة من أشار إلى الحق بلا خلقٍ قبل، ولا كونٍ كان؛ إذ إن الكون والخلق مكوَّنان لأقوام لهما بنفسهما؛ لأنهما وجود بين طرفي عدم. والتفرقة أيضاً لفظ مجمل يعبّر عن إشارة من أشار إلى الكون والخلق. وهما أصلان لا يستغني أحدهما عن الآخر. فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع، جحد الباري؛ ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة، فقد أنكر قدرة القادر. فإذا جمع بينهما، فقد وحّد» (السّرّاج، ١٩١٤م، ٣٣٩ـ ٣٤٠).

قال الجنيد:

قَد تّحقّقْتُك في السِّرِّ فناجاك لساني — فاجتمعنا لمعانٍ وافترقنا لمعانِ

إنْ يكنْ غيّبك التعظيمُ عَنْ لَحْظ عياني — فلقد صيّرك الوجْدُ من الأحشاء دانِ

(كاشاني، آ ١٣٧٢ هـ. ش، ص ١٢٨)

و أيضا قال الواسطي:

«**إذا نظرتَ إلى نفسك فرقْتَ؛ وإذا نظرتَ إلى ربّك جمعتَ، وإذا كنتَ قائماً بغيرك، فأنت فانٍ بلا جمعٍ ولا تفرقةٍ**» (السابق، ص ١٢٩).

٨ ـ والمراد بـ«المقام» مقام إبراهيم عليه السلام بقرب الكعبة المشرّفة (فرغاني، ١٣٩٨هـ، ص ١٩١).

٩ـ و أيضاً قيل: إن الفناء السير إلى الله، والبقاء بداية السير في الله؛ وأيضاً قيل: الفناء رؤية حركات العبد، والبقاء رؤية عناية الله. والفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق على الحق، فيغلب كونُ الحق على كون العبد؛

١٠ـ و قال الجنيد: الوجد انقطاع الأوصاف عند سمة الذات بالسرور. وقال أبو العباس عطا: الوجد انقطاع الأوصاف عند سمة الذات بالحزن (كاشاني، ب ١٣٨٢، ص ٩٤).

١١ـ و قيل: البسطُ هو الفرح في حالة الكشف. (أنزابي‌نژاد، ١٣٧٢هـ. ش، ص ١٣٠) وهما خَلّان شريفان لأهل المعرفة (الصوفية). إذا قبضهم الله، حشمهم عن تناول المباحات حتى الأكل والشرب والكلام؛ وإذا بسطهم، ردّهم إلى هذه الأشياء حتى يتأدّب الخلق بهم.

المصادر والمراجع

أ. العربية

۞ القرآن الكريم

١. ابن أبي الإصبع، عبدالعظيم بن الواحد. (١٩٥٧م). ***بديع القرآن***. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر.

٢. ابن خَلّكان، أحمد بن محمد. (١٩٥٢م). ***وَفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان***. (تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

Archive of SID

www.SID.ir

٣. ابن الفارض، عمر بن علي. (١٤١٠هـ/١٩٩٠م). ***ديوان***. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. ابن القيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (د. ت). ***روضة المحبين ونزهة المشتاقين***. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤٠٥هـ). ***لسان العرب***. (ج ٧). قم: نشر أدب الحوزة (أوفست).

٦. البستاني، فؤاد أفرام. (د. ت). ***المجاني الحديثة***. (ج ٣). (ط ٣). بيروت: دار المشرق.

٧. التفتازاني، مسعود بن عمر. (١٣٧٣هـ. ش). ***مختصر المعاني***. (ج ٢). قم: دار الحكمة.

٨. الحسيني، سيدجعفر. (١٤١٣هـ). ***أساليب البيان في القرآن***. (ط ١). طهران: مؤسسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

٩. الجارم، علي ومصطفى أمين. (١٩٦٩م). ***البلاغة الواضحة***. (ط ٢١). مصر: دار المعارف.

١٠. الزيات، أحمد حسن. (د. ت). ***تاريخ الأدب العربي***. (ط ٢٤). بيروت: دار المعرفة.

١١. زيدان، جرجي. (١٩٩٦م). ***تاريخ آداب اللغة العربية***. (ط ١). بيروت: دار الفكر.

١٢. الفاخوري، حنّا. (آ ١٩٩١ م). ***الموجز في الأدب العربي وتاريخه***. (ط ٢). (ج ٢). بيروت: دار الجيل.

١٣. السرّاج الطوسي، عبدالله بن علي. (١٩١٤م). ***اللمع في التصوف***. (تصحيح رنولد إلن نيكلسون). ليدن: بريل.

١٤. النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل. (آ د. ت). ***شرح ديوان عمر بن الفارض***. (ج ١). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٥. ـــــــــــــــــــــــ (ب د. ت). ***شرح ديوان عمر بن الفارض***. (ج ٢). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٦. ناصرالدين، مهدي محمد. (١٩٩٠م). ***شرح ديوان ابن الفارض***. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٧. الهاشمي بك، أحمد. (١٩٤٠م). ***جواهر البلاغة***. مصر: مطبعة الاعتماد.

ب. الفارسية

١٨. أنزابي‌نژاد، رضا. (١٣٧٢هـ. ش). ***گزيدة مرصاد العباد***. تهران: پيام نور.

١٩. أنصاري، قاسم. (١٣٧١هـ. ش). ***مبانى عرفان وتصوف***. تهران: پيام نور.

٢٠. فاخوري، حنّا. (ب ١٣٦٣هـ. ش). ***تاريخ ادبيات زبان عربى***. (ترجمة عبدالمحمد آيتى). تهران: توس.

٢١. فرغاني، سعيد الدين سعيد. (١٣٩٨هـ). ***مشارق الدراري الزُّهر في شرح نظم الدّرّ***، تهران: انجمن فلسفه وعرفان اسلامى.

٢٢. يثربي، يحيى. (١٣٦٨هـ. ش). ***سير تكاملى و اصول مسائل عرفان و تصوف***. تبريز: دانشگاه تبريز.

Archive of SID

www.SID.ir